- ٤ -

المَوْقفُ العَظَيمُ والابْتلاءُ الأَعْظَمُ

ترعرع يوسف -عليه السلام- في القصر ونعيمه، وأصبح محبوبًا عند العزيز وعند زوجته، والآن تأتيه البلوى ليطهره الله عز وجل، وليحفظه؛ لأنه حفظ الله -عز وجل- فحفظه ربه -تبارك وتعالى-، ويمر في فصل من فصول حياته ليتطهر وليصبح في سجل الخالدين، الأنبياء المرسلين عليهم السلام، قال سبحانه: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ بعد ما كان في القصر، وأصبح - عند بعض المفسرين - في العشرين أو الخامسة والعشرين الله أعلم، إنما القرآن أخبرنا أنه في تلك الحالة رغبت فيه امرأة العزيز، وطمعت فيه وأحبته وتعلقت به، وأتت إليه ورغبت فيه، هي الآن التي تطلبه وهو المطلوب، وهي التي تجري من ورائه وهو الذي يهرب منها، وانظرو إليه، شابٌ ليس بكبير حتى يكون عنده عزوف عن النساء، إنما شاب متوطد الحيوية تام البنيان -عليه السلام- ثم هو أعزب ليس عنده زوجة حتى يطفئ شهوته في المباح أو الحلال، ثم هو غريب، والغريب كما يقول ابن تيمية: الغريب لا يأنف من العار. ثم هو مدعو من المرأة، فليس هو الطالب، ثم هي جميلة، وانظر إليها ملكة في بيت الملك، وكيف يكون اختيار الملك العزيز لزوجته، إلا أن تكون جميلة باهية مغرية، زد على ذلك أنه

-عليه السلام- لما دعته كانت ذات منصب، وذات المنصب والجمال تكون مغرية أكثر، فهي تتمكن من القرار، وتتمكن من رفع العقوبة، ومن كف الاعتداء عنه لو حدث ذلك، وزد على ذلك أنها ذات مال، فهي ثرية ملكة تملك بالدراهم والدنانير والذهب والفضة والمجوهرات، وزيادة على ذلك أنها غَلَّقَت الأبواب وحاصرته من كل جانب، حاصره الشباب والعزوبة والغربة والجمال والمال والمنصب، وغَلَّقَت الأبواب، لكن هناك باب لم تغلقه وهو الباب الذي بينه وبين الواحد الأحد، تستطيع أن تختفي عن العيون، إلا عن الواحد الأحد -عز وجل-، تستطيع أن تتستر بحيطان وجدران إلا عن الذي يعلم السر وأخفى، تستطيع أن تخفي فعائلك وأسرارك عن كل أحد إلا الواحد الأحد، ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ الذي يعلم السر وأخفى.

قال: ﴿**وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ**﴾ وأسلوب المبالغة هنا يدل على أنها حصنته، حتى تتمكن من يوسف -عليه السلام- فلما غلقت الأبواب أتت بزينتها وفتونها وجمالها وإغرائها وبهجتها وذهبها وعطرها، وتعرضت له أمامه وقالت: ﴿**هَيْتَ لَكَ**﴾ أي: تعال وأقبل أريدك وأريد منك ما تريد المرأة من الرجل، فلما اعترضت أمامه، قال وصاح بصوته: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ**﴾، ما أحسنها من كلمة أيها الجيل!! هل لنا أن نحفظ هذه الكلمة، ولو لم نستفد من الدروس إلا معاذ الله اعتصمت بالله، التجأت بالله، أعوذ بالله أن أقع في غضب الله، أعوذ بالله أن أحارب الله معاذ الله، ما أحوج الجيل إليها والفتنة

تُعرض أمامه في القنوات وفي المسلسلات، وفي المجلات الخليعة التي تبث الرذيلة، وتدغدغ المشاعر وعواطف الشباب، ما أجدر الفتيان والفتيات أن يقولوا: جميعًا معاذ الله، فإذا رأيت صورة باهتة تدعوك إلى الفاحشة فقل: معاذ الله، وإذا سمعت صوتًا مريبًا يدعوك إلى المعصية فقل: معاذ الله، من الذي يحول بيننا وبين المعاصي إلا الواحد الأحد.

المهم أن المرأة أقبلت إلى هذا الشاب الأعزب الغريب بكامل زينتها، ملكة ذات منصب ومال، وهي تتصرف في القرار، وغَلَّقَت الأبواب، ويقول: معاذ الله، يهرب وتلاحقه، ويفر منها وتسعى خلفه، ويصيح في البيت «معاذ الله» قال يقول: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، قال بعض المفسرين: إن العزيز زوجك أكرمني، ولا يليق بي أن أخالف هذا الإكرام، كيف يسكنني في القصر، ويكسوني ويطعمني ثم أخالفه على زوجته هذا لا يليق بي، وقال الجمهور وهذا الصحيح: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وقصده الله -عز وجل- الذي خلقني فهو يهديني، الذي سوى سمعي وبصري وقواني، وأعطاني وهداني وحفظني وتولاني وناصرني وآواني، معاذ الله، كيف يارب أن أفعل معصية، كيف أقابل ربي بأن أخون أمانته؟ كيف أجحد معروف ربي عندي؟ كيف أكفر إحسان ربي عندي؟ إنه ربي أحسن مثواي؟ إذا اقتربت من معصية فتذكر عينيك من وهبها لك سوى الله، أذنيك الذي أسداك إياها الله

الواحد الأحد، جلدك الجميل، شعرك الوافر، الحياة، الإسلام، الطعام الشراب، من وهبك القدمين، وقواك وهداك وقوم عوجك أفجزاء هذا النعيم أن تعصيه جل في علاه.

قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، يعني أكرمني وأحسن منزلتي وحباني وأعطاني، فلا يليق بي أن أتنكر لعطائه ولا جميله جل في علاه.

فقال بعضهم: هَمَّ أن يضربها، وقال بعضهم: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لما هَمَّ بها، إذًا فينفون الهم عنه، وهذا بعيد أيضًا لا يتسق مع اللغة ولا الشرع، وقال بعضهم: هَمَّ أن يفر، قالوا: لو كان هذا بُيِّن في القرآن، والقرآن على ظاهره الذي يفهمه الناس بثقة في عقولهم والصحيح: أن نفسه -عليه السلام- حدثته ومالت ولم يعزم ميول البشر، وميول الإنسان، وإن أتى في نفسه الخاطر وهو يرى الجمال، ويرى هذا الإغراء ويرى هذه الفتنة، فأتت بشريته وإنسانيته تحدثه من الداخل، ومالت نفسه ولكن الله عصمه -جل في علاه-، وهذا الهم لا يؤاخذ عليه العبد؛ لأنه ليس جزمًا، وليس إصرارًا، وليست إرادة جازمة، فهو قد حدثته نفسه كالوسواس، وأتى في خواطر داخلية، خاطره مال إليها؛ لأن القرآن قال: هكذا ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فلا بد أن يكون هذا مثل هذا، لا تفصل همَّت به وهمَّ بها في المعنى، هذا هو القرآن، وهذا من عظمة يوسف أن يَهِم ثم يغلب سلطانه وإيمانه وبرهان ربه على نفسه التي همَّت فينتصر بإذن الله، فوجه الكلام على هذا يتضح لك، وهذا الذي رجحه الطبري وكثير من المفسرين، منهم وهو

الصحيح -إن شاء الله-، همَّ بها ولكن لم يعزم ولم يجزم، وما أقوى الإرادة عنده، إنما هو مجرد هَمٍّ، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، فلما رأى برهان ربه لم يقدم بل أحجم واستغفر وتراجع وتوقف، فما هو برهان ربه؟ قالوا: رأى صورة يعقوب أبيه وهو يعض إبهامه. وهذا بعيد، وبعضهم يقول: إنه رأى صورة جبريل يصيح به يقول: يا يوسف لا تزنِ، فإن من زنا كالطائر الذي ينتف ريشه. وهذا بعيد، وقال بعضهم: أتت امرأة العزيز إلى صنم في البيت وسترته، قال: لمَ تسترين هذا؟ قالت: أخاف أن يراني، قال: أنت ربك صنم جامد حجر تسترينه وربي السميع البصير لا أخاف منه. وهذا بعيد، والصحيح أن برهان ربه واعظ الله في قلبه، ومعرفة علم الحلال والحرام، وقيام الدليل على قبح الزنا، وهو محرم، والواعظ استقام في قلبه، البرهان قام في قلبه، خشية الله وتقوى الله، فلما رأى برهان ربه وقف ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يعني: أبصر الحق، وأقام الله الحق في نفسه بأدلة قاطعة على حرمة الزنا.

فيوسف - عليه السلام - رأى برهان ربه قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، فيوسف -عليه السلام- هذا مجتبى ومصطفى ليكون نبيًا -عليه السلام-، وليكون رسولاً لأمة، وليوليه الله الأرض، وليكون عالمًا وقائدًا وإمامًا، فأراد الله أن يطهره، وأن يحفظه ليكون قدوة للناس وأسوة للعالم.

قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، فمن الذي يصرف عنه السوء؟ الله هو الذي يصرف السوء. فنسأله أن يصرف عنا السوء

والفحشاء. قيل: السوء عمل اليد بالخطأ على الغير، والفحشاء عمل الفرج. وقيل: السوء ما يحدث به القلب من السوء، والفحشاء ما يفعله الفرج. وقيل: السوء الظلم، والفحشاء الفاحشة، المهم أن الله صرف عنه السوء فلم يظلم، وصرف عنه الفاحشة فلم يزنِ، ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، ما هذه العناية عناية في البيت، وعناية في الصحراء، وعناية في القصر، وعناية في الفطرة، وعناية في الغنى، فلذلك التِزم حبله -سبحانه- ليجتبيك ويحفظك في كل مكان، قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾، نحن نصرفه عنه، وإلا الإنسان لوترك بعقله وتفكيره لضاع، مسكين هذا الإنسان، والله لو تُرِكْنا لأهوائنا ونفوسنا وأفكارنا وليس معنا لا صلاة ولا قرآن ولا أذكار ولا عبادة لنضيعن، ولذلك لا تشمت بأحد وقع في معصية أو فاحشة، فأنت من أنت؟ فالله -عز وجل- بقدرته يستطيع أن يرفع عنك الحصانة والتقوى والرقابة فتقع في أدهى ما وقع فيه ذاك.

يقول: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ هذا عبد لنا نريد أن نخلصه وأن ننقيه وأن نصفيه ليكون من المخلصين، هذا الشاب النقي التقي، الخائف من ربه، الهارب من المعصية يسعى يريد الباب ليخرج وهي تسعى تلاحقه، فهو يفر وهي تلحقه.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أسلوب القرآن هكذا، فلما وصل إلى الباب قبلها سحبت قميصه من الوراء فقدَّته، والتفاصيل هذه لا يأتي بها القرآن، بل بأصل القصة ومسارات الحديث الواسعة المفهومة الجملية المعلومة، فلما وصل الباب قدت قميصه من رغبتها فيه،

وهو يهرب -عليه السلام- قال: معاذ الله، معاذ الله فوصل هناك، ووصلت وراءه وهي خلفه تمسكه وتدعوه، فسحبته وقَدَّت قميصه من الوراء، يقال: قَدَّ القميص قدّاً، يستعمل القَدُّ في القميص، والشق في القماش الذي لم يفصل؛ لأن أسلوب القرآن لا يدركه إلا من يعرف جلال هذا القرآن وجماله.

قال هنا: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾، يقول الشعبي: يوسف قصته في القميص، الآن القميص قدته، وأتى إخوانه بقميصه، وأتوا على قميصه بدم كذب، وهناك شق قمصان، ولما أصبح في مصر حاكمًا أرسل قميصه فهي ثلاثة قمصان، هذا قميص التهمة، وقميص الريبة، وقميص النجاة والفلاح والنهاية والانتصار، فقصته في قميصه -عليه السلام-، وموسى قصته في عصاه، ومحمد قصته في قرآنه ﷺ، هنا قال: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ أي: لما وصل إلى الباب شقت القميص، والباب كان مغلقًا بل: محكم الغلق، ويوسف -عليه السلام- يريد أن يفر من الباب ففتحه -عليه السلام- بقوة، وإذا بالسيد الزوج عند الباب، تصور المشهد، وانظر كيفية نقل القرآن لهذا الحدث، فقصة يوسف من أعظم القصص العالمية في تاريخ الإنسانية من الشرق إلى الغرب، من عهد آدم إلى أن يرث الأرض ومن عليها، لكنها نقلت بإثارة وجاذبية وتشويق وجلال وبيان، فلما فُتِح الباب، انظر إلى البديهة عند هذه الملكة، وقوة الذاكرة والاحتيال -سبحان الله- إن كيدهن عظيم، فرأت زوجها وهو واقف يشاهد المشهد، ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾،

تقول: تغيب عنا، ولا تتقي الله فينا، وتسلمنا لهؤلاء، هذا أكرمناه وأدخلناه القصر ثم يعود ويفعل بنا ما يفعل، يريد أن يحطم كرامتي، ويحطم أسوار مجدي أنا الملكة بقصري، قالت: ﴿**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا**﴾ قال المفسرون: هذا من ذكائها؛ لأنها كبيرة وفاهمة وملكة ما تحيرت في الجواب، ما قالت عفوًا أو سامحنا أو أخطأنا أو هربت. هي تقول: إنني أهلك والواجب أنك تنتقم، قالت سوءًا؛ يعني: فاحشة، الآن تقترح على العزيز؛ لأنه حاكم القصر وحاكم مصر، قالت: ﴿**مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ**﴾، ما قالت: يقتل؛ لأنها تحبه، إلا أن يسجن. بدأنا الآن في السجن، الآن يأتي حديث السجن ليدخل السجن أعظم سجين في التاريخ، كما سجن بعده ابن تيمية، والإمام أحمد، فهما من أتباع يوسف -عليه السلام-، فيوسف دخل السجن، لكنه دخل شريفًا صاحب دعوة، صاحب ميثاق رباني، مكث في السجن سبع سنوات.

وكانت تقول لزوجها: اسجنه، فأنا لا أتنازل عن حقي، أنا أطالب بما انْتُهِك من حق القصر والمروءة، من حقي أن تسجنه، أو عذاب أليم، قال المفسرون: العذاب الأليم إذا ذكر مع السجن، يعني: الجلد، إما أن تسجنه الآن أو الخيزران أو عذاب أليم، يعذب بأنواع العذاب: فأتى المظلوم والمفترى عليه -عليه السلام- مظلوم في طفولته، مظلوم في الجب، مظلوم في الصحراء، مظلوم في القصر، مظلوم في السجن، وسوف ينتصر ويكون حاكمًا ونبيّاً ومرسلاً وملكًا مؤيدًا من الله الواحد.

قال المظلوم -عليه السلام-: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، والله إنها بلتني بنفسها، والله إنها تعرَّضت لي، والله إنها ظلمتني، يا رب أنت تعلم ما حلّ بي، يا رب ضاقت بي تبتليني في قصرها، وتغلق عليّ الباب، وتغريني ثم تشكوني وهي المصَدَّقةُ في القصر، ملكة وذات منصب، وذات جمال، وذات مال، ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، طلبت هي الفاحشة مني، وأنا أبيْتُ ورفضت.

فكروا ماذا يفعلون؟ قال رجل في القصر وقيل: كان طفلاً في الفناء الداخلي والله أعلم، لا يهمنا الشخص إنما هو شاهد من أهلها من قرابتها كانت له حكمة، ورأى المشهد الملك حيران ويصيح: عرضي زوجتي ينتهكها هذا الغلام، ويوسف -عليه السلام- يصيح: هي راودتني وأنا مظلوم، وهي تصيح أنا مظلومة وأراد بي سوءًا. قال الحكيم في القصر: أنا آتيكم بحل المسألة، أنا أقدم إليكم أطروحة اقبلوها مني هذا اليوم، قالوا: قل، قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، بدأ به لأنها هي المصَدَّقة عندهم، هي صاحبة القصر والملكة، فبدأ بها؛ لأنها تمتنع منه وقد انشق قميصه من أمامه؛ لذلك فهي صادقه، وهو مقبل، ولذلك إذا انشق القميص من الأمام فالمرأة صادقة وهو من الكاذبين، أجاره الله من الكذب، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ إن كان قميصه مشقوق من الوراء والخلف فهو رجل صادق يفر منها وهي تلحقه، إذًا اعتدت عليه وتجرأت عليه ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، قال الملك: صدقت هذا الحكم معقول؛ لأن القرائن يأخذ بها، وما دام

أن هذا رجل عاقل وحكيم فيأخذ حكمًا غيابيًا؛ لأنه ما رأى فسمي شاهداً، قال: فأتى الملك. قال: قبلته، فلما رأى الملك قميصه قُد من دبر قال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، يقال: إن الملك ما كان عنده غيرة كثيرة، فلم يأخذ سيفًا ولا رمحًا، بل قال: هذا من كيدكن أنتن، ثم قال الملك، وقيل غيره: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، ولم يحاسبها على شيء. قال: انتبهوا ولا تعودوا إلى مثل ذلك مرة ثانية، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يقول ليوسف: أرجوك لا تحدث بذلك؛ لأن القصر له احترام مخصوص، والبيوت لها أسرار، أرجوك لا تتحدث عن هذا، فينقل في مصر وينقل بين المواطنين، وتصبح السيرة فيها نظر.

قال الملك لزوجته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾، وأنت يا يوسف أعرض عن هذا، ويظهر أنه مال الآن إلى تصديق خبر يوسف، وقامت القرائن؛ بأن يوسف صادق، قال: ما دام أنك صادق نريد منك مطلبًا واحدًا، لا تنشر هذا الخبر الذي وقع في بيتنا وقصرنا، اسكت حتى لا يسري الخبر، وأما أنتِ فالظاهر هذا الميل وقع منك فاستغفري لذنبك، ولا يغفر الذنوب إلا الله -سبحانه وتعالى-، ثم قال: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، قيل: الملك أو الحاكم إنك ضللت الرشد، إنك أسأت؛ وتجنبت الصواب، إنك ارتكبت الخطأ في حق هذا الشاب الطاهر الجليل يوسف -عليه السلام-، وكلكم خطاء وخير الخطائين التوابون، إنك كنت من الخاطئين.

انتهينا الآن من القصر وما جرى فيه من حكم، والحكم يشبه حلاً نظريًا لا سجن ولا جلد، إنما أنت اسكت وأنتِ استغفري ،

قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، يقول المفسرون: إن الخبر لم يكتم لكن ليس من يوسف، بل من الحرس والخدام والحجاب انتشر الخبر في مصر بسببهم.

المهم أن الخبر والإشاعة انتشرت في مصر، قالوا: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، يا للمصيبة الملكة عندها غلام وتحبه فقد شغفها حبّاً وأسرها بجماله، العاقلة تفعل ذلك وتجد كثيرًا من الناس يفعل ذلك، ووقع في ذلك، قالوا: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسها والله إنها ارتكبت خطأ، وإنها أساءت لسمعة القصر وسمعة الدولة بأسرها، وإنه لا ينبغى لها هذا الأمر، تراود فتاها عن نفسه، تطلبه في نفسه في شخصه، في جسمه، تطلب منه ما تطلب المرأة من الرجل، انظروا إلى أسلوب القرآن كيف يرتقي؟ كيف يشفي؟ كيف يرتفع؟ كيف يطهر دائمًا؟ ولم يأت بالتفاصيل التي يأتي بها الكتاب، لكن المتطاولين على القيم المتمردين على المثل العليا، الذين لا يوقرون قيمة الحرف، قيمه الكلمة ويسمون هذا التجرد والصدق في أداء القصة، لا بل هو الفحش والقبح والفضيحة، قالوا: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ هؤلاء النساء يقلن: والله إن حبه وصل إلى شغاف قلبها، والحب هذا مشكلة، العشق هذا مشكلة، يقول ابن عباس يوم عرفة: «أعوذ بالله من العشق» تعوذوا بالله من العشق حتى المتنبي له بيت جميل يقول:

وَعَـذَلـتُ أَهْلَ العِـشْقِ حَـتَّى ذقْـتـهُ

فَـعَـجِـبْـتُ كَـيْـفَ يَـمُـوتُ مَـنْ لا يَـعْـشَـقُ

المهم أن الخبر انتشر والنساء قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ما تستحي المرأة على نفسها تحب هذا الغلام بهذا الشغاف.